نحن والمستشرقون

رد على الدكتور مبارك

للدكتور حسين الهراوى

علق الأستاذ الدكتور زكى مبارك على ما كتبناه عن المستشرقين وأثرهم فى البحث الاسلامى والاجتماعى عن الشرق(١) ، ورأينا فيهم أنهم ما تخصصوا فى العلوم الاسلامية والمباحث اللغوية العربية إلا لغزوة العقل الشرقى وإخضاعه واستعباده للعقل الأوربى حتى رأينا أن نهضتنا الأدبية والاجتماعية لاتتجه إلى غرض منتج ، كأن يكون لنا شخصية وطابع شرقى يتفق مع ديننا وأدبنا وعاداتنا وقوميتنا .

ولقد استهل الدكتور مبارك عرضه لما كتبنا بجملة تنم على وفائه لأساتذته منهم ، وأنه يحفظ لهم فى نفسه احترام الطالب للاستاذ .

وإنا نحمد له وفاءه واعترافه فى مستهل حديثه باستحالة تبرئة المستشرقين من المطامع لاستعمارية . ويرى أن الاستعمار رذيلة فى القوى ، والضعف رذيلة فى الضعيف ، وأن واجبنا لنحصر فى تقوية أنفسنا لنسود العالم مرة أخرى .

وليس من شأنى أن أتعرض للقسم السياسى من هذا الموضوع ، فان تقوية الممالك ، والاستعمار ، وتغلب الضعيف على القوى ، مسألة أخرى ، غير ما نكتب ونوجه الأنظار اليه . بل نرى لزاما علينا ، وقد عرض الدكتور مبارك برذيلتى الاستعمار والضعف ، أن نشير إلى رذيلة أخرى تفوقهما ، وهى أن يقبل الشخص العاقل تسليم عقله وعقيدته من غير بحث لقوم نشك فى أغراضهم ، وأن يقبل هذا الشخص احترام هذه الفئة وهو لم ينتقد أعمالها ولم يجردها من ذلك الثوب المزركش الخداع من العلم المصطنع ، والتبحر المغرض ، وإلا لرأينا كبار الكتاب منا ينشرون على الناس تلك الآراء التشكيكية والتلاعب بالعقائد مما لم يتصد له غير الأستاذ الامام المغفور له الشيخ محمد عبده والمرحوم الشيخ عبدالعزيز جاويش فى كتابه « الاسلام دين الفطرة » .

وعندى أن الاستشراق مهنة وحرفة كالطب والهندسة والمحاماة ، وهو أقرب الشبه إلى مهنة التبشير .

ولا يخفاك أن التاريخ الاسلامى ينقسم إلى قسمين : القسم الأول منه هو الاسلام من حيث هو دين ، وعناصره : القرآن ، والحديث ، وحياة سيدنا محمد عليه السلام ؛ والقسم الثانى منه ، تاريخ الدول العربية التى نشأت وعاشت فى الاسلام . وهذا القسم

(١) راجع الجزء الماضى من مجلة (المقتطف)

قد خدمه المستشرقون حقاً ، لأنه نوع من المباحث التاريخية الحرة . أما القسم الأول منه، فهو بيت القصيد ، ولا يتصدى له كل المستشرقين ، والذين يتصدون له ترى كلامهم مملوءاً بالتشكيك ، والاستنتاج الخاطىء ، والغمز واللمز ، إن لم يكيلوا التهم جزافاً ، ويرموا الدين الاسلامي بما يشاءت عقائدهم الخاصة وفائدتهم المادية .

وإلا فاذا كان ذلك الولع الذي يصفه لنا الدكتور مبارك قد بلغ حد الايمان والعقيدة ، ولم يتجاوز ـ كما أسميه ـ الاحتراف والمهنة، لرأينا واحداً فقط من مئات هؤلاء المستشرقين اعتنق الدين الاسلامي ، وإلا كان لنا أن نستنتج ـ بحق ـ أن هؤلاء كلهم لم يروا في الدين الاسلامي ، برغم اطلاعهم العميق على أسراره ، حسنة واحدة تستهوي واحداً فقط ، يعتنق هذا الدين الذي خصص له كل حياته . أفلست إذن على حق في أن أقول إنها مهنة ، ومن المهن من لا يعتقد الشخص بفائدتها الروحية ، وإن اقتنع بفائدتها المادية ؟ أما الذين يبحثون عن المبدأ الروحي فقد أسلم منهم كثيرون ، وليس منهم مستشرق واحد .

كيف تقوى أنفسنا أمام المستشرقين الذين يدخلون الشك في عقائدنا ويصورونها في كتبهم على غير حقيقتها ؟ لا أشك في أن القراء يوافقوني على أن تكون المجادلة علمية نزيهة بالتي هي أحسن، كما افعل أنا في نقدي لكتاب درمنجم ، وإن كنت أعتقد في نزاهته ، إلا أني أعتقد أن للعقيدة الشخصية أثراً في كتابته . فنرى لزاماً علينا إذن ، أن نعرض لآراء المستشرقين ، وأن نقف أمامهم موقف الند للند لا موقف الطالب للأستاذ ، فان مصادرنا ومصادرهم واحدة ، وليس لهم من ميزة غير التهذيب والتحليل ، وكثير منه خاطىء ومبني على التشكيك ، والنزعة التي يراد بها استعباد العقل الشرقي ليحتقر الشرق نفسه .

أستطيع أن أعد لك كثيراً منا يتفنون بمديح المستشرقين والاشادة بذكرهم ، ولا أستطيع أن أعد غير الأستاذ الامام والمرحوم الشيخ جاويش في الرد عليهم ومجادلتهم (وقد مضى على ذلك ربع قرن تقريباً) .

فلو أننا قوينا أنفسنا بتقدمهم، وأزلنا تلك الغشاوة الكاذبة التي خدرت أبصارنا وأنفسنا وتشكك الكثير منا في عقائدهم ودينهم ، لكان هذا أول حجر في بناء الانانية القومية ، والأدب الشرقي المستقل .

وأرى أنني والدكتور مبارك متفقان على وجوب الاحتراس من المباحث التي ينشرها المستشرقون ، لأنه يعترف في صراحة أنهم أدوات الاستعمار ، غير أنني أختلف وهو في نقطة جوهرية: هي أنهم يستعمرون العقول ، ويحتلون الأذهان ، ويتملكون العقائد . وهذه كلها ملك أصحابها لا سلطان عليها لأحد كائناً من كان ، فاذا قوينا في أنفسنا العقيدة القومية والأنانية الوطنية فتأكد أن لن يقف في سبيلنا الى الرقي شيء مطلقاً .

إن الحضارة الأوروبية تنقسم في نظري إلى قسمين : حضارة مادية ، وحضارة أدبية . فأما الحضارة المادية كالميكانيكا والتجارة والصناعة فنحن أحوج الناس لها .

أما المدنية الأدبية ، كالقصص ، والعربدة فى الديانات ، والتشكيك فى العقائد ، فنحن أحوج إلى آدابنا القومية وعاداتنا الشرقية .

فنحن إلى الآن لم نركز اتجاهنا إلى ما يفيدنا حقاً ، وتشعبت مجهوداتنا فلم نظفر بغير مزيج من المدنية الأوروبية الممزج بآدابنا الشرقية ، لا طعم له ولا لون ، ولا يدعو إلى الاطمئنان للمستقبل الذى نسعى اليه ، وقد تمكنا من الأدب الأوروبى بالناحية التى يشكو منها الأوربيون ، فالى أى طريق نحن مسوقون ؟ .

لقد أخذ الزهو قوما درسوا اللغات والأدب الأوروبى فنزعوا إلى هذا النهج ، اعتزازا بما تعلموا وتركوا أنانيتهم القومية التى ليس من وسيلة غيرها للرقى المنشود .

ليست كتب المستشرقين ببعيدة عن متناول يد أى انسان ، فليس فيها فيما يخص الدين واللغة إلا الغمز واللمز والعربدة فى العقائد ، فماذا استفدنا منهم ، وما هو أثرهم الأدبى فى الشرق ، غير استعباد العقول ؟!

إن العمل الجدى المنتج يظهر أثره فى الثقافة العامة ، وقد رأينا أثر المستشرقين واضحا ، فهل لنا أن نفتح أعيننا لخطره على العقائد ؟ ؟

الدكتور حسين الهراوى

الابن الضال

(بقية المنشور على الصفحة ٣٠١)

« وكم حاولت الصيام عن الموسيقى ولكنى لم أستطع ، ولا أخفى عليك : لقد تكررت زياراتها وساعدنا سهر الوالد فى المقهى . . وكان عتاب أعقبه عناق وتقبيل ، لقد نسيت زوجها ونسيت أبى ، ولم أعد أذكر إلا أنها سعاد وأن هذا العناق وذلك التقبيل من حقى ، فقد كنت أنعم بهما فى الماضى القريب !

« والآن كيف أتم حديثى ؟ لقد استبحنا كل الذنوب أو قل مثلنا مأساة أوديب الملك ! ليس الذنب ذنبى وإنما هو ذنب المقادير !

« انقطعت سعاد فجأة عن زيارتى فى غرفتى لسبب أجهله ، واستيقظ ضميرى بعد سباته ، وأصبحت لا أطيق الغرفة أو المنزل ، يخيل إلى كلما دخلتهما أننى أسمع أبى يقول « هو الابن الضال ! الابن الضال ! »

« ولهذا خنقت آمالى الطويلة العريضة ، وبحثت عن وظيفة حتى وفقت إلى وظيفة كاتب بمصلحة الأموال المقررة بالمنصورة ، وسأسافر غداً . . . اذكرنى ! » . . .

وفى اليوم التالى ودعته على المحطة وكان بادى التأثر ، وقد شد على يدى عند تحرك القطار وهو يقول « الرسائل أيها الصديق ! . . . » وانحدرت دمعتان على خده ، وهذه هى المرة الأولى التى أراه فيها يبكى . . . لقد غادرنى وكأن قلبى معه ! ؟

طبق الأصل

عبد الحميد يونس